مراجعة كتاب «فلسفة اللغة»

تأليف: صلاح إسماعيل

أ.د. ناصر بن فرحان الحريّص[١]

مدخل

«فلسفة اللغة» هو عنوان الكتاب الذي ألفه أستاذ الفلسفة بكلية دار العلوم في جامعة القاهرة أ.د. صلاح إسماعيل، ونشرته الدار المصرية اللبنانية في القاهرة، سنة ٢٠١٧م (ط،١). يقع الكتاب في ٢٦١ صفحة من الحجم المتوسط، ويحمل الرقم الدولي المعياري (ردمك): ٩٧٨-٩٧٧-٩٧٥-١٤٢-٥.

منذ بدايات القرن الماضي، أصبح موضوع فلسفة اللغة يحتل موضع الصدارة من اهتمامات الفلاسفة والباحثين؛ إذ أدى الاهتمام المتزايد بدور اللغة في تقريب الأفكار الفلسفية، إلى تغلغلها في كل مجال من مجالات الفلسفة تقريبًا. ومنذئذٍ، اهتمت فلسفة اللغة بالقضايا التأسيسية المتعلقة باللغة، ويأتي في مقدمتها الإحالة والصدق وعلاقة ذلك بالمعنى والاستعمال اللذين منهما انبثقت نظرية المعنى، التي تعد من أهم مباحث فلسفة اللغة وأكثرها تعقيدًا. لقد كان سؤال المعنى: «ما مصدر كون اللغة تعني وتدل» أحد مظاهر ارتباط «مسألة اللغة بالفعل بما يمثل خصوصية البشر وطبيعة العقل» (أورو ٢٠١٠: ٧-٨).

وفي أواخر القرن الماضي، تداخل علم فلسفة اللغة مع علمي اللسانيات وفلسفة الذهن. فأمدّ الأول بمباحث ذات طابع فلسفي، كعلاقة اللغة بالفكر، وعلاقة اللغة بالعالم، وبالواقع، والوجود، والسلطة، والدين، والمجتمع وبغيرها من الموضوعات التي تربط اللغة بعلاقة ما. ولأن الفكر يشبه اللغة كثيرا، فقد شكّل معها «كلاً غير قابل للتفريق، يسمى أحيانًا (نظرية المحتوى)، ويهدف إلى إيضاح طبيعة العلاقات التي تقيمها التمثلات اللغوية والذهنية مع الواقع غير اللغوي أو غير الذهني»

١-* أستاذ اللسانيات بقسم اللغة العربية وآدابها في كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية جامعة القصيم.

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

(ريكاناتي ٢٠١٦: ١٥-١٦).

مما سبق، تتضح لنا أهمية علم فلسفة اللغة في تعريفنا عن التفكير الفلسفي حول اللغة، وما أحاط به من قضايا ورؤى حددت الأسس الفلسفية للتفكير اللغوي على امتداد تاريخ اللغات البشرية، وأفرزت مقاربات فلسفية ذات طابع لغوي وآخر ذهني لملامح عامة في اللغة من قبيل الإحالة والمعنى والصدق وعلاقتها بالفكر والتمثلات الذهنية والواقع. وتلك المقاربات الفلسفية لهذه القضايا نجد جلها ماثلًا شرحًا وتفسيرًا ونقاشًا، وأحيانًا نقدًا، في الكتاب موضع المراجعة كما سيتضح ذلك عبر عرض مفصل لمحتوى فصوله، وعبر فحص تقويمي، في نهاية المراجعة، لمعرفة إلى أي مدى كانت إضافته مهمة في هذا الحقل.

فصول الكتاب

يحتوي الكتاب على مقدمة وسبعة فصول ويفتقر لخاتمة في نهايته. ألقت مقدمة الكتاب الضوء على التحول الذي طرأ على الفلسفة في النصف الأول من القرن العشرين عندما ظهر التحول/المنعطف اللغوي linguistic turn في الفلسفة المعاصرة. وهو تعبير ابتكره جوستاف برجمان في مراجعته، عام ١٩٦٠، لكتاب ستراوسون: الأفراد. ولكن المصطلح تطور بعد ذلك، وتحول إلى اتجاه وحركة فلسفية بفضل أعمال ريتشارد رورتي ابتداءً، ثم لاحقًا في أعمال فريجه الذي كان له الدور الأبرز في ترسيخ هذا الاتجاه. وقد عرف هذا الاتجاه، فيما بعد، بالفلسفة التحليلية التي اتخذت اللغة موضوع الفلسفة المفضل؛ لأنّ دراسة الفكر لا بد أن تمر، أولًا، بدراسة اللغة باعتبارها مرآة للفكر، وباعتباره نافذة لها.

وتشير مقدمة الكتاب إلى أن بعض الباحثين ينسب ظهور هذا الاتجاه إلى الفيلسوف النمساوي فتجنشتين الذي كان يرى في كتابه رسالة منطقية فلسفية (١٩٢١) أن الفلسفة برمّتها ما هي إلا نقد للغة. وقد زادت، لاحقًا، أعمال راسل وكواين وفلاسفة أكسفورد من تعميق اتجاه الفلسفة التحليلية التي منها نشأ وتشكل الفرع الفلسفي المعروف الآن بفلسفة اللغة كما سيوضح الكتاب في ثنايا فصوله.

يستفتح فصولَ الكتاب الفصل الأول: **فلسفة اللغة: تحديد المصطلح، وبيان**

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

الاتجاهات. وهذا الفصل جاء، وفق المتوقع والمنتظر منه، ليجلو غموض مصطلح فلسفة اللغة وتداخله مع المصطلحات الفلسفية الأخرى التي لها علاقة أو مساس باللغة. وقد مهد الفصل لذلك ببيان أنّ اهتمام الفلسفة باللغة قديم قدم الفلسفة ذاتها، ويمكن تلمس ذلك في الفكر اليوناني الفلسفي منذ اهتمامه بعلوم اللغة والبلاغة والجدل عند السفسطائيين الأوائل كـ(بروتاجوراس)، أو في ذلك البحث العميق الذي قدمه أفلاطون (٣٤٨-٤٢٨ ق.م) في محاورة قراطليوس. وفي فلسفة العصر الوسيط، استمر اهتمام الفلسفة باللغة عند فلاسفة الإسلام وفي مقدمتهم الفارابي (ت. ٣٣٩هـ) في كتابه الحروف. وفي الفلسفة الحديثة، عُني الفلاسفة أصحاب الاتجاه العقلي باللغة مثل ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠) وليبنتز (١٦٤٦-١٧١٦)، وكذلك أصحاب الاتجاه التجريبي مثل لوك (١٦٣٢-١٧٠٤)، وباركلي (١٦٨٥-١٧٥٣)، وهيوم (١٧١١-١٧٧٦)، ومل (١٨٠٦-١٨٧٣). ثم جاءت الفلسفة المعاصرة، كما وضِّح في المقدمة، وفيها ظهر المنعطف اللغوي الذي أسس بدوره لميلاد الفلسفة التحليلية الحاضن الأول لعلم فلسفة اللغة بدءًا من كتابات فريجه (١٨٤٨-١٩٢٥) ووصولًا إلى كتابات كواين وديفيدسون ودميت وبتنام وسيرل ولويس وبراندوم في وقتنا الحالي (ص ٢١-٢١). وبعد هذا التمهيد، انتقل الفصل إلى تمييز عدة مصطلحات يحدث خلط بينها وبين مصطلح فلسفة اللغة. فالأخير يعنى بتقديم أوصاف فلسفية لملامح عامة في اللغة من قبيل الإحالة والمعنى والصدق، ويناقش في المقام الأول العلاقة بين اللغة والمتكلم التي تنتج نظرية المعنى، والعلاقة بين اللغة والعالم التي تنتج نظرية الإحالة ونظرية الصدق. وبهذا المفهوم يصبح مصطلح فلسفة اللغة مبحثًا من مباحث الفلسفة، وحديث فلسفي «حول» اللغة، وليس «في» اللغة كما تفعل اللسانيات Linguistics التي هي دراسة علمية للغة في ذاتها ومن أجل ذاتها، وتتناول اللغة في بنيتها الداخلية من جميع جوانبها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية وغيرها (ص، ٢٢). أما مصطلح الفلسفة اللغوية linguistic philosophy فهو، كمصطلح التحليل اللغوي linguistic analysis، يهتم بحل مشكلات تظهر في الميتافيزيقا والأخلاق والمعرفة، وغيرها من موضوعات الفلسفة، التي يعاد طرحها في صياغة لغوية. ثم تناول الفصل مصطلح فلسفة علم اللسانيات philosophy of linguistics الذي يختلف عن مصطلح فلسفة اللغة، خلافًا

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

لفودور (١٩٣٥-٢٠١٧) وكاتز (١٩٣٢-٢٠٠٢) في مقالهما المعنون بـ«ما الخطأ فيما يتعلق بفلسفة اللغة؟» الصادر عام ١٩٦٢م، والذي خلص إلى نتيجة مفادها أنّ علم اللسانيات هو نظرية تجريبية في اللغة، فلا بد من تأويل فلسفة اللغة على أنها ليست شيئًا آخر غير فلسفة اللسانيات، أي الفرع المماثل في كل جانب لفلسفة علم النفس وفلسفة الرياضيات وفلسفة الفيزياء..إلخ (ص، ٢٣). وقد رفض المؤلف وجهة النظر هذه؛ لأن فيها تضييقًا لمجال فلسفة اللغة، وإلغاءً للمهمة الخاصة لفلسفة اللغة المحددة في كشف العلاقة بين صورة اللغة ومحتواها، ووضعِ عمليات استدلال حول طبيعة المعرفة المقامة أساسًا على ما نعرفه حول بنية اللغة. وهذا ما يجعلها مجالًا متميزًا عن فلسفة علم اللسانيات التي هي جزء من فلسفة العلم، وعادة يكون اهتمامها الأساسي منصب على فحص النظريات والمناهج والممارسة لدى عالم اللغة الوصفي (ص، ٢٤). بعد ذلك ناقش الفصل عددًا من المجالات الفلسفية التي تظهر فيها عناية الفيلسوف باللغة، وهي (أ) الميتافيزيقا و (ب) المنطق و(جـ) ونظرية المعرفة، وجميعها تتكئ على اللغة وعليها تعتمد (ص، ٢٤-٢٦).

ويختم الفصل مباحثه بالحديث عن الاتجاهات الأساسية في فلسفة اللغة، مركزًا على ثلاثة اتجاهات يمكن تلخيصها كما يلي (ص، ٢٦-٢٧):

الاتجاه الأول: يمتد من فريجه ورسل وفتجنشتين المبكر عبر الوضعية المنطقية حتى يومنا الحالي في كتابات كواين وديفيدسون ودميت وبتنام. ويهتم هذا الاتجاه بالعلاقة بين المعنى والصدق.

الاتجاه الثاني: يمثله مور وفتجنشتين المتأخر ومدرسة أكسفورد أو فلاسفة اللغة العادية وأبرزهم: رايل وأوستن وستراوسون وجرايس، ويسير في ركابهم سيرل وهابرماس. ويصب هذا الاتجاه جل اهتمامه على العلاقة بين اللغة والمتكلم. وهنا ينشأ الاهتمام بأسئلة تتعلق باستعمال اللغة، وباللغة بعدِّها جزءًا من السلوك الإنساني. والسؤال الأساسي عند هذا الاتجاه هو: ما العلاقة بين المعنى والاستعمال؟

الاتجاه الثالث: تصوره كتابات تشومسكي التي أفرزت تصورًا معينًا لفلسفة اللغة تأثر به بعض أتباعه مثل كاتز وفودور. ويناقش هذا الاتجاه موضوعات تدور في فلك المعرفة اللغوية واعتبار النظرية اللغوية تفسيرية بدلا من أن تكون وصفية.

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

والسؤال الأساسي عند هذا الاتجاه هو: كيف نفسر الإبداع اللغوي؟ أو كيف يبدع الذهنُ اللغة؟

وقد استقطبت فلسفة اللغة في الآونة الأخيرة رؤى جديدة استفادت من كتابات فلاسفة مثل ديفيد لويس وروبرت براندوم وجون ماكدويل وغيرهم. ينضاف إلى ذلك، إسهامات الفلسفة الأوروبية متمثلة في كتابات هيدجر وجادامر وريكور الذين يربطون بين اللغة والخبرة والوجود (الكينونة) والتأويل (ص، ٢٧).

حمل الفصل الثاني عنوان **النظرية التجريبية في تعلم اللغة (كواين)**، وفيه تطرق المؤلف إلى نزعة كواين (١٩٠٨-٢٠٠٠) التجريبية «السلوكية» في تعلم اللغة وتعليمها، والتي تقوم أساسًا على رفض المذهب العقلي mentalism القائل إن المعاني هي الأفكار ideas، ومن ثمّ فإن الأخيرة كائنات عقلية خاصة بكل فرد، ولا سبيل إلى معرفتها إلا عن طريق أن يستبطن كلُ من يملكها ذاته (ص، ٣٣). وهذه النظرة، كما يراها أنصار النظرية التجريبية، تحوّل الأسئلة الخاصة بعملية التعليم إلى أسئلة لا طائل تحتها. وفي مقابل هذه النظرة، ظهرت نزعة في علم النفس وعلم اللسانيات والفلسفة في أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين استبعدت الكلام عن الأفكار، وتناولت بدلًا من ذلك الظواهر القابلة للملاحظة والتجريب والقياس مع طرح المذهب العقلي القائم على الاستبطان الذي لا يركن إليه (ص٣٣، ٣٤). ومن هنا، بات علماء النفس التجريبي وفي مقدمتهم واطسون (مؤسس المدرسة السلوكية في علم النفس) يؤكدون على أهمية السلوك ورفض المصطلحات العقلية مثل الوعي والعقل والفكرة، ومنهج الاستبطان، وتبني المنهج التجريبي الذي ينصب على السلوك الخارجي والظاهرة القابلة للملاحظة والتجريب. وفي مجال اللسانيات، تخلى بلومفيلد عن المذهب العقلي واستبدله بمبادئ السلوكية؛ وذلك لأن مصطلحات ذلك المذهب غير علمية، ما دامت الصور الذهنية والمشاعر والأفكار مجرد ألفاظ عامة لحركات جسدية.

أما في مجال الفلسفة، وهو ما يهم موضوع الكتاب، فقد وجد البراجماتيون وفتجنشتين المتأخر أن الإشارة إلى الأفكار تشكل مصدر صعوبة كبيرة في فلسفة اللغة. بل ذهب كواين إلى أن السلوكيين على صواب في اعتقادهم بأن الكلام عن

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

الأفكار يعد من الأعمال السيئة في علم النفس. كما نظر إلى الأفكار على أنها من الأمور الضارة التي يجب اجتنابها عند دراسة اللغة، وألح، بدلًا من ذلك، على دراسة السلوك اللغوي القابل للملاحظة والمعاينة (ص، ٣٤-٣٥). وقد وظف ذلك في تعلم اللغة في مراحله الأولى. وهذا التوظيف يُظهر، كما لا حظ ستيفن جيز (٢٠٢٠)، تأثير كواين داخل إطار فلسفة اللغة، فقد عمق بنظريته اتجاه الانخراط النشط مع اللسانيات وأيّد معاملة الفلسفة باعتبارها متشابكة جوهريًا مع العلوم التجريبية.

وقبل الشروع في عرض نظرية كواين التجريبية السلوكية في تعلم اللغة، انتقل الفصل للحديث عن أهم ثلاث نظريات حاولت تفسير طبيعة اللغة، وهي (أ) النظرية السلوكية التي وضعها السلوكيون أمثال واطسون وسكنر، و(ب) النظرية العقلية كما يمثلها تشومسكي وأتباعه (وسيناقشها الفصل الموالي)، و(جـ) النظرية المعرفية عند جان بياجيه. ثم فصّل الفصل الحديث عن خطوات تعلم الطفل للغة من وجهة نظر النظرية التجريبية التي كان يطمح مؤسسها، كواين، إلى بناء نظرية تجريبية سلوكية في تعلم اللغة بصفة عامة. وفي سبيل ذلك، وضح الخطوات التي يخطوها الطفل في تعلم اللغة، ولخصها في خطوتين (ص، ٣٩): (أ) إشراط استجابات الطفل اللفظية لمثيرات غير لفظية، و(ب)إشراط استجابات الطفل اللفظية لمثيرات لفظية:

يرى كواين أن الطفل يتجاوز بعد وقت ليس بالطويل تعلم لغته عن طريق خضوعه للإشراط للإثارات غير اللفظية، وينتقل من الاستجابة لإثارات مع جمل ذات كلمة واحدة إلى المشاركة في محادثة محدودة النطاق. وفي محاولة لتفسير هذا يفترض كواين أن الطفل يكون مشروطا لربط جمل بجمل عبر إشراط جملة بوصفها استجابة لجملة بوصفها مثيرًا (ص، ٤٠). وقد نبه الفصل إلى استحالة هذا الربط مع جميع الجمل في لغة معينة؛ لأن معظم الجمل التي نتحدث بها هي جمل لم نسمعها ولم ننطقها من قبل. وهذا يعني أن كثرة الجمل التي يتكلمها متكلمو اللغة ليست عن طريق كونهم مشروطين للجمل الأخرى كما تذهب النظرية التجريبية في تفسيرها لمفهوم الإشراط الإجرائي الذي لا يستطيع أن يصمد أمام مفهوم الإبداع اللغوي عند تشومسكي (١٩٦٤: ٨، ١٩٧٥: ٦١) في أنّ متكلم اللغة المثالي على الرغم من

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

محدودية تجربته اللغوية إلا أنه يمتلك مقدرة على إنتاج وفهم ما لا يحد من الجمل التي يفهمها، فورًا، أعضاءُ جماعته اللغوية حتى وإن كانت جديدة بالنسبة لهم وله على حدٍ سواء. وهذا يدل على أننا فطريًا نتمتع بقدرات تمكننا من أن نتجاوز خبراتنا اللغوية الماضية ونضع عددًا لا متناهيًا من الجمل الجديدة التي لا نعتمد في إبداعها على تلك الخبرات. وقد أشار الفصل إلى أن كواين حاول الخروج من هذا المأزق في فكرة (الاستبدال التمثيلي)، وهي فكرة لم يشرحها الفصل (ص، ٤١).

وفي سبيل بناء نظرية تجريبية سلوكية في تعلم اللغة، شرح الفصل في نهايته جمل الملاحظة observation sentences، التي يعرفها كواين عدة تعاريف أحدها وأهمها تعريف سلوكي يعتمد على فكرة المعنى المثير. أي، تصبح الجملة جملة ملاحظة عندما «يكون المعنى المثير لها واحدًا بالنسبة لجميع المتكلمين للغة تقريبًا، وأمثلتها من قبيل (إنها تمطر)، و (هذا أحمر)، و (هذا أرنب)» (ص، ٤٥).

ومن بين التعريفات التي اقترحها كواين لجمل الملاحظة، وفيه عدّت جملَ مناسبةٍ وليست جملًا دائمة standing sentences، أن مراعاة قيمة الصدق فيها تختلف باختلاف الظروف السائدة في وقت النطق، وهي جملة من قبيل «هذا أحمر» و « إنها تمطر»، والتي تكون صادقة في مناسبة وكاذبة في مناسبة أخرى، وذلك على خلاف جملة مثل «السكر الحلو» التي تبقى قيمة صدقها بصرف النظر عن مناسبة النطق.

ومما سبق، استنتج الفصل ثلاث سمات يجب أن تستوفيها الجملة لكي تكون جملة ملاحظة، وهي (ص، ٤٥-٤٦):

١. أن تكون جملة مناسبة وليست جملة دائمة.

٢. أن تكون مناسبتها قابلة للملاحظة بشكل بيّنٍ وذاتي.

٣. أن تحظى بالموافقة من جميع المشاهدين اللذين ينتمون إلى المجتمع الكلامي الذي تقال فيه الجملة.

وختم الفصل حديثه عن جمل الملاحظة ببيان دورها المتمثل في أمرين مهمين أولهما دلالي يجعل جمل الملاحظة هي المدخل إلى اللغة؛ لأنها أول ما نتعلمه منها، وثانيهما برهاني يجعلها هي المدخل إلى العلم وفحص النظرية العلمية، بما تقدم من

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

أساس مشترك يلتقي فيه العلماء عندما ينشأ بينهم خلاف حول نظرية من النظريات (ص، ٤٧).

ويواصل الكتاب في الفصل الثالث تقديم تصور فلسفي آخر في اكتساب اللغات وتعلمها؛ فيخصص الفصل للحديث عن **النظرية العقلية ودورها في اكتساب اللغة** وتفسير طبيعة المعرفة الإنسانية عبر منظور نظرية النحو التوليدي لعالم اللسانيات الأمريكي المعروف ناعوم تشومسكي. وقد بُدئ الفصل بمقدمة تمهيدية عن تشومسكي وظهور اسمه في الدرس اللساني بشكل لافت عندما نشر مقاله الذي انتقد فيه النظرية السلوكية التي ترى أن السلوك أساسي في فهم الظواهر العقلية. وقد كان مقاله (١٩٥٩) مراجعة ونقدًا لاذعًا لكتاب سكنر (١٩٠٤ – ١٩٩٠): السلوك اللفظي (١٩٥٧). وفي تلك المراجعة التي نشرت في مجلة اللغة، قوض تشومسكي دعائم المدرسة السلوكية التي شكلت منذ بداية ثلاثينيات القرن الماضي، المذهب الأكثر انتشارا بآرائه وأساليبه التي أثرت بشكل لافت في مسار الدرس اللساني، وغيرت كثيرًا من مفاهيمه. ومن جميل الإضافة التي أضافها الفصل في هذا الصدد، تفريقه بين السلوكية العلمية (النفسية والمنهجية) والسلوكية الفلسفية (المنطقية والتحليلية) (ص، ٥٨). فالأولى، وهي المعنية بنقد تشومسكي، ظهرت في القرن العشرين على يد واطسون (١٨٧٨ – ١٩٥٨) الذي أدخل المصطلح إلى علم النفس سنة ١٩١٣، ثم تطورت على يد هول وتولمان وسكنر. وجاءت السلوكية في علم النفس بمثابة خروج على التقليد الاستبطاني وذلك عن طريق إعادة تعريف المهمة الملائمة لعلم النفس على أنها تفسير السلوك والتنبؤ به. أما الثانية (أي، السلوكية الفلسفية) فهي دعوى دلالية حول معاني التعبيرات العقلية، وجاءت صورتها البارزة عند الوضعيين المنطقيين وبخاصة كارناب وهمبل واير، ثم تجلت صيغتها المؤثرة في كتاب مفهوم العقل ١٩٤٩ لجلبرت رايل، والتي يمكن إيجازها في عبارة تقول إن العقل استعداد للسلوك.

وبعد تعداد المبادئ العامة التي ترتكز عليها السلوكية بصفة عامة، انتقل الفصل في حديث مركز عن نظرية بلومفيلد في اللغة التي كشف عنها في كتابه الشهير اللغة (١٩٣٣)، وفيه أعلن عن مشايعته للمذهب السلوكي وتفضيله على التناول العقلي

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

للغة الذي تخلى عنه تماماً سنة ١٩٢٦م حين كتب بحثه: مجموعة مسلمات لعلم اللغة، وطرح فيه وجهة نظر سلوكية في تفسير طبيعة المعنى اللغوي تكمن في ملامح المثير ورد الفعل القابل للملاحظة في المنطوقات. وبذلك هو يؤكد أن الدراسة العلمية الصحيحة للغة تبدأ من ملاحظة الكلام العادي (ص ٦٥-٦٦).

ويوضح الفصل قبل حديثه التفصيلي عن النظرية التوليدية في جانبيها العلمي والفلسفي، موقف تشومسكي من النظرة السلوكية لطبيعة اللغة، الرافض لها؛ لأنها، في نظره، عاجزة عن أن تقدم لنا تفسيرًا مقنعًا لتعلم اللغة واستعمالاتها. فالاستجابات اللغوية لا تخضع كلية لسيطرة المؤثرات الخارجية، ذلك أننا نستعمل اللغة للتعبير عن الفكر في المقام الأول، والاستعمالات اللغوية لا حصر لها. والخطأ الذي وقعت فيه السلوكية هو الانبهار بنجاح التجارب التي أجريت على الحيوان وتوسيع مجالها بحيث تنطبق على الإنسان. والشيء الذي غاب عن أنصارها أن اللغة الإنسانية ليست نمطًا من العادات يمكن أن يشترك فيه الإنسان والحيوان، وإنما هي ميزة إنسانية فريدة (ص، ٦٦).

وفي نقاش مفصل ومركز، قلما نجده في مرجع آخر، يتناول الفصل نظرية النحو التوليدي من جوانب متعددة، أهمها توضيحه لأهداف النظرية اللغوية التي يطمح تشومسكي منذ أول كتاب كتبه عنها، أعني كتاب البنى التركيبية (١٩٥٧) إلى جعلها متمثلة في نظريته الوليدة آنذاك. وهذان الهدفان هما: (أ) تقديم نموذج جديد للنحو، و(ب) مناقشة طبيعة النظرية اللغوية وأهدافها (ص، ٦٨). وينتقل الفصل، بعد ذلك، للحديث عن الجذور التاريخية للنحو التوليدي ويرجعها إلى التقليد البنيوي structuralist tradition في علم اللسانيات، وبشكل أخص إلى بنيوية ما بعد بلومفيلد post-Bloomfieldian structuralism، وكان أستاذ تشومسكي زيلج هاريس Zellig Harris واحدًا من روادها، وورث عنه تشومسكي وجوب صياغة التحليل اللغوي في حدود صورية (ص، ٧٠). وأما في الجانب الفلسفي، فتعود جذور النحو التوليدي، كما سيأتي تفصيله في نهاية الفصل، إلى النزعة العقلية في الفلسفة لا سيما في القرن السابع عشر، قرن العبقرية كما يسميه تشومسكي.

ومن أهم ما تناول الفصل تقديمُ فهم جدير بالتأمل عن المغزى الثوري لنموذج

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

النحو التوليدي. وهو فهم لا يتم إلا عبر مقارنته بالنموذج البنيوي؛ لتتضح أوجه التعـارض بينهما. ويتجلى الاختلاف الجذري بين النموذجين في محاولة تشومسكي لإعادة النظر في أهداف النظرية اللغوية التي حددها البنيويون في هدف متواضع يتمثل فقط في الدراسة التصنيفية أو الوصفية للغة، وفيها يقوم عالم اللغة، مستخدمًا المنهج الاستقرائي، بجمع معطياته من لغة معينة، ثم يصنف هذه المعطيات إلى مستوياتها المختلفة، فيبدأ بالأصـوات اللغوية، ثم ينتقل إلى الوحدات الصوتية، وبعد ذلك تأتي الكلمات، ثم الجمل وأخيرا أنواع الجمل. أما النموذج التوليدي فيرى أن تركيـز النموذج البنيوي على جمع المعطيات اللغوية وتصنيفها لا جدوى من ورائه، وأن الهـدف الملائم للنظرية اللغوية هو المعرفة التي يملكها المتكلمـون الأصليون، والتي تمكنهم من إنتاج الجمل وفهمها. ويسمي تشومسكي هذه المعرفة باسم القدرة اللغوية linguistic competence (ص، ٧١). وهذا القدرة يميزها تشومسكي عن الكلام. ويعد هذا التمييز مبدأً أساسيًا من مبادئ النظرية التوليدية.

وفي مبحث مهم يتناول الفصل بالشرح دلالة مصطلح النحو التوليدي، ويتتبع التطور في أفكار النحو التوليدي عند مؤسسه وعند أتباعه، وقد انحصر تتبعه عند تشومسكي في نموذجين أطلق عليهما: (أ) نظرية تشومسكي عام ١٩٥٧، و(ب) النظرية النموذجية ١٩٦٥. والحق أن الأولى اصطلح على تسميتها في تاريخ النظرية بالنظرية المعيارية Standard Theory، والثانية بالنظرية المعيارية الموسعة Extended Standard Theory ولم يأتِ الكتاب على النظريات الأخيرة التي أحدثت نقلة نوعية في أفكار النظرية، أعني نظرية المبادئ والوسائط Principles and Parameters التي بلورها تشومسكي في نظريتين مشهورتين: نظرية العمل والربط الإحالي Government and Binding Theory الممتدة ما بين ١٩٨١ و ١٩٨٥، ونظرية الحواجز أو العوائق Barriers التي رأت النور سنة ١٩٨١. ومؤخرًا وابتداءً من سنة ١٩٩٥، أدخل تشومسكي تعديلات جديدة على نظريته، واقترح لها اسم البرنامج الأدنوي Minimalist Program الذي يمتاز بالبساطة في التحليل والبعد عن التعقيد، باعتماد استنتاجات صورية قائمة على عدد محدود من الفرضيات القادرة على تغطية أكبر قدر من المعطيات والوقائع. وقد كان الباعث الأساس لتبني هذه النظرية الجديدة هو تلافي التعقيد الذي كان موجودًا في النظريات السابقة (ينظر

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

بارتشت ٢٠٠٤، وغلفان وآخرون ٢٠١٠، والحريّص ٢٠١٤).

ومن القضايا التي تناولها الفصل ويندر وجودها في المراجع العربية عن النظرية، ما قام به أتباع تشومسكي من محاولة تعديل نظرياته وتطويرها بإضافة بعض العناصر إليها أو تقديم بدائل لها. ومن أبرز صورِ هذا التطويرِ النظريةُ التي عرفت باسم علم الدلالة التوليدي generative semantics. وقد دافع عن هذه النظرية مجموعة من علماء اللغة من أمثال جورج لاكوف وبول بوستال وجون روس. وينظر علماء الدلالة التوليديون إلى المكون الدلالي للنحو على أنه الأساس التوليدي الذي تشتق منه البنية التركيبية. وقد قضى الفصل وقتًا طويلًا في التعريف بالنظرية لينفذ إلى ما له علاقة ماسة بموضوع الكتاب، وهو بيان الخلفية الفلسفية للنظرية. وفي هذا الصدد، نجده يؤكد على أن الأفكار والنظريات التي طرحها تشومسكي تستند على أسس فلسفية عقلية؛ إذ لا تميز صارمًا عنده بين الفلسفة والعلم، ونجده يستشهد ببعض الفلاسفة الذين تعتمد أفكارهم على أصول علمية مثل ديكارت وهيوم، ويرى أن دراسة اللغة ترتبط ارتباطًا وثيقًا بدراسة الفكر إن لم تكن الدراستان دراسة واحدة. وبعد أن أثبت تشومسكي إخفاق المذهبين التجريبي والسلوكي اللذين ارتكزت عليهما اللسانيات البنيوية خاصة في بنيوية ما بعد بلومفيلد كما أشير سابقًا، طفق يبحث عن مبادئ أخرى، ووجد ضالته في المذهب العقلي عند ديكارت وليبنتز ووليم فون همبولت وأصحاب منطق بور رويال. ومن نافلة القول التأكيد على أن هذه الأصول العقلية ترتد في التراث الغربي إلى أفلاطون الذي حظي باهتمام في بعد النظرية الفلسفي؛ إذ كان ما يعرف بمشكل/ مشكلة أفلاطون أحد روافد هذا البعد، وأهم مصدر للإجابة على الأسئلة التي طرحتها النظرية في دراستها لطبيعة اللغة الإنسانية ودورها في نظرية المعرفة (ص، ٨٣-٩٠):

(أ) ماذا نعرف عندما نستطيع تكلم اللغة وفهمها؟

(ب) كيف تكتسب هذه المعرفة؟

(جـ) كيف تستعمل؟

(د) ما العمليات العضوية التي تدخل في تمثيل هذه المعرفة واكتسابها واستعمالها؟

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

وفي خاتمة الفصل نوقش سؤال تشومسكي ذو الطابع الفلسفي الذي طُرح في مستهل كتابه (اللغة والعقل): ما الإسهام الذي يمكن أن تقدمه دراسة اللغة لفهم الطبيعة البشرية؟ وقد ارتكزت إجابة هذا السؤال على مجموعة من الأفكار المرتبطة بفكرة أساسية هي فكرة الإبداعية اللغوية التي يرى المؤلف أنها أكثر الأفكار تأثيرًا في فلسفة اللغة عند تشومسكي؛ لأنه استخدمها باعتبارها حجة لإثبات أن النوع البشري يختلف اختلافًا جوهريًا عن أي شيء آخر في العالم المادي. ينضاف إلى ذلك، أن فكرة الإبداعية هي التي كشفت عن نقائص النظرية التجريبية والسلوكية في دراسة اللغة وتعلمها، وهي أيضا الفكرة التي اقتضى تفسيرها أن يسلم تشومسكي بمفاهيم أخرى في نزعته العقلية مثل فرض الفطرية اللغوية language Instinct ومفهوم الكليات اللغوية أو النحو الكلي Universal Grammar (ص، ٩٠). وفي واقع الأمر، أن ما ذكره المؤلف في هذا الجانب هو لبّ فكر النظرية التوليدية في إسهامها الفلسفي واللغوي في فهم طبيعة اللغة البشرية، أهم ما ميزها على الإطلاق (ينظر الحريّص ٢٠١٨).

يناقش الفصل الرابع المعنون بـ(نظريات المعنى) إحدى المشكلات التي يوليها علم فلسفة اللغة جل اهتمامه، وهي مشكلة المعنى التي شكلت وما زالت تحديًا للعقل الإنساني؛ إذ إن سؤال: «ما معنى كذا؟» مطروح على الإنسان منذ القدم، أي منذ أن بدأ يتواصل مع الآخرين، وحاول إدراك العالم الخارجي من حوله. ولعل الظاهرة الكلامية في مجتمع لغوي معين من أكثر الظواهر إثارة لمشكلة المعنى، وذلك لأن هناك علاقة حميمة بين المعنى والكلام أو اللغة عمومًا، فليس ثمة لغة من دون معنى (ص، ١٠٥). ويقع هذا السؤال من الفلسفة في صميم صميمها كما يقول المؤلف؛ وإليه ينجذب المشتغلون بحقول معرفية أخرى مثل علم اللسانيات الذي يشغل المعنى فرعًا كاملًا من فروعه ألا وهو علم الدلالة، كما يتناول المعنى مجالات علم النفس والانثروبولوجيا والأدب وغيرها من العلوم (ص، ١٠٦).

وقد أشار الفصل إلى أهمية المعنى في علم فلسفة اللغة معللًا ذلك بأن فيلسوف اللغة لا يستطيع أن يتناول الموضوعات التي تشكل مجال بحثه تناولًا دقيقًا، إلا إذا عمد أولًا إلى تحديد موقفه من المعنى، وطرح على نفسه مجموعة من الأسئلة من

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

قبيل: ما علاقة المعنى بتعلم اللغة؟ وما علاقة المعنى بالإحالة؟ وما علاقة المعنى بالصدق؟ وما علاقة المعنى بالتواصل؟ وما علاقة المعنى بالفهم؟ وما علاقة المعنى بالترجمة؟ وبتعدد الإجابات عن مثل هذه الأسئلة تعدد نظريات المعنى، وتتضخم إشكاليته. وقد صور كاتز، وهو من أبرز فلاسفة اللغة المعاصرين الذين اهتموا بمشكلة المعنى اهتمامًا جادًا، إلى وجود اتفاق عام على أن السؤال الأساسي في علم الدلالة هو: ما المعنى؟ ولكن هذا الاتفاق سرعان ما يتلاشى بعد ذلك وتظهر الخلافات اللامتناهية حول نوع الشيء الذي يكون معنى. ويجمع ألستون نظريات المعنى في ثلاث نظريات هي (ص، ١٠٨):

(أ) النظرية الإشارية referential theory: وتذهب إلى أن معنى التعبير هو ما يشير إليه.

(ب) نظرية الأفكار ideational theory: وترى أن معنى التعبير هو الأفكار التي ترتبط به أو تناظره في ذهن المتكلم والمستمع. ويشيع تسمية هذه النظرية في أدبيات اللسانيات الدلالية العربية باسم النظرية التصورية (عمر ١٩٩٨)، بينما يطلق عليه محمود فهمي زيدان، في كتابه فلسفة اللغة، مسمى النظرية الفكرية، ١٩٨٥: ٩٦).

(جـ) النظرية السلوكية behavioral theory: وتزعم أن معنى التعبير هو المثير الذي يستدعي نطقه أو الاستجابة التي يستدعيها التعبير بدوره.

هذا، ويوجد تصنيف آخر لنظريات المعنى، ذكره الفصل، يحصيها في خمس نظريات (ينظر ص، ١٠٨-٠٩).

وبعد هذا التمهيد العام، ينتقل الفصل للحديث عن بعض تلك النظريات وأبرز المآخذ عليها. وفي هذا الجانب، نجد شرحًا وافيًا لنظرية الأفكار (ص، ١٠٩-١١٢)، ويتلوها الحديث عن نظرية التحقق (ص، ١١٢-١١٧)، غير أن الحديث الأكثر تفصيلًا كان عن نظرية الاستعمال في المعنى (ص، ١١٧ حتى نهاية الفصل ص، ١٢٩). والأخيرة يعدها المؤلف النظرية الأكثر ملاءمة من سواها لطبيعة اللغة والبحث الفلسفي فيها، إذ إنها تستوعب كثيرًا من النظريات الأخرى في المعنى وتتفادى نقائصها (ص، ١٢٨). وتعتمد نظرية الاستعمال في المعنى على افتراض مؤداه أن معنى الكلمة هو استعمالها في اللغة، أي أن المعنى لا يتضح إلا من خلال وضع الكلمة أو التعبير في سياق. وتعود جذور هذه النظرية إلى كتابات

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

فتجنشتين الأولى، غير أن هذه الإرهاصات قد اكتملت وشكلت نظرية واضحة في كتبه المتأخرة. ثم جاء فلاسفة أكسفورد فطوروا هذه النظرية وأضافوا إليها أبعادًا جديدة نالت بها تأييد أصحاب الاتجاه الوظيفي في علم اللسانيات (ص، ١١٧، ويقارن ذلك مع ما ذكر عن علم الاستعمال في الفصل ٦ كما سيأتي).

ويقارن الفصل بين فلسفتي فتجنشتين المبكرة والمتأخرة ودورهما في بلورة هذه النظرية. وفي هذا الصدد، يصف الفصل فتجنشتين في تحول أفكاره بالمبكر والمتأخر من غير توضيح لذلك. ففتجنشتين المبكر ذهب في كتاب (رسالة منطقية فلسفية) إلى القول بنظرية الصورة في اللغة ومفادها أن اللغة رسم للوجود الخارجي أو تصوير له. في المقابل، فإن فتجنشتين المتأخر قد أدرك جوانب القصور في هذه النظرية وراح ينقد الافتراض العام الذي مؤداه أن معنى أي كلمة هو الشيء الذي تشير إليه أو تمثله، وقد حاول اجتناب هذا القصور فعثر على حيلة جديدة هي «ألعاب اللغة»، ولقد نتج عن هذا المفهوم المحوري الجديد نظرية جديدة في المعنى هي نظرية الاستعمال التي توجزها العبارة القائلة: «لا تسأل عن المعنى، بل اسأل عن الاستعمال» (ص، ١١٨، ولمزيد تفصيل عن فكرة فتجنشتين حول «ألعاب اللغة» ينظر الفصل الأول من كتاب المؤلف اللغة والعقل والعلم في الفلسفة المعاصرة (٢٠١٨)).

فيما بعد، طور فلاسفة مدرسة أكسفورد نظرية الاستعمال وأضافوا إليها أبعادا جديدة حتى أصبحت نظرية تميزهم كتيار من تيارات الفلسفة التحليلية. وقدموا تعريف المعنى في حدود الاستعمال باعتباره قاعدة منهجية عملية.

ويختم الفصل حديثه عن نظرية الاستعمال في المعنى بذكر الأسباب التي تجعل من هذه النظرية أكثر ملاءمة من سواها لطبيعة اللغة والبحث الفلسفي فيها على وجه الخصوص. ومن أبرز تلك الأسباب أن التعبير اللغوي الواحد في إطار نظرية الاستعمال يمكن أن يكون له أكثر من معنى، والذي يفصل بين هذه المعاني هو السياق الذي يرد فيه التعبير (ص، ١٢٨-٢٩).

نظريات قصد الاتصال كان عنوان الفصل الخامس، وخصص للحديث عن مفهوم المعنى عند الفيلسوف الإنجليزي بول جرايس (١٩١٣- ١٩٨٨) الذي

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

يعد، كما يرى المؤلف، فيلسوف المعنى بحق؛ إذ كرس جل جهده الفلسفي لدراسة المعنى. وقد وصفه المؤلف بوصف طريف دال هو (الفيلسوف القنفذ) مستعينًا الاستعارة الجميلة التي ابتكرها أشعيا برلين (١٩٠٩ – ١٩٩٧) حين فرق بين نوعين من الكتاب والمفكرين ممن يكونون على طرفي نقيض: القنافذ والثعالب (والقارئ مدعو لقراءة هذا التفريق الدال والمعبر في ص، ١٣٨).

والفصل في جله نقاش واحتفاء بإسهامات جرايس وعلاقته بفلسفة اللغة العادية. ويعكس الفصل مدى إلمام المؤلف بفكر الرجل وفلسفته في تحليل المعنى (ينظر كتابه نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس، ٢٠٠٧). ويلخص الفصل أشهر إسهامات جرايس في فلسفة اللغة بما يلي: (أ) تحليله للمعنى لدى المتكلم speaker's meaning أو نظريـة قصد الاتصال في المعنى، و(ب) نظرية الاقتضاء التحادثي conversational implicature، و(جـ) فلسفة الأخلاق التي حاول أن يقدم فيها أساسًا ميتافيزيقيًا للقيمـة كما فعل في كتابه مفهوم القيمة (نُشر ١٩٩١)، وجوانب العقل (نُشر ٢٠٠١). وقد ظهرت كتابات جرايس في المعنى على هيئة مقالات نشـرت في المجلات الفلسفية الرائدة على مـدار ما يزيـد على ثلاثين عامـًا، وجمعت هذه المقالات في كتاب دراسات في طريق الكلمات عام ١٩٨٩.

وقد لخص الفصل عددًا من أفكار جرايس في المعنى والاتصـال حفل بها الفلاسفة وأصحاب العلم المعرفي وعلماء اللغة (ص، ١٤٠-٤١). وقد أشار الفصل إلى التباين بين جرايـس وفلاسفة اللغة العادية وإن كان محسوبًا عليهم. ومن بين الأفكار المحورية التي لا يتفق فيها مع أنصـار هذه الفلسفة، فكرة أن المعنى هو الاستعمال. وعدم الاتفاق هذا يمكن ملاحظته في فكرته الأساسيـة عـن المعنى التي ترى أن المتكلم يعني شيئًا (ما) عندما يلفظ قولًا في مناسبة محـددة. وكل الأفكار الأخـرى المتعلقة بالمعنـى يتعيـن معالجتها، عنده، على أنها «مشتقة» و»مفسـرة « في حدود هذه الفكرة الأساسية.

ومن أهم مباحث الفصل ذلك المبحث المعنون بـ(معركة هوميرية: نظريات الاستعمال في مقابل النظريات الصورية)، وفيه شرحت الأسئلة المتعلقة بالمعنى (ص، ١٤٦). وكان المهم منها، لمن يريد دراسة فلسفة المعنى، سؤالين هما: ما معنى الجملة

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

sentence meaning؟ وما المعنى لدى المتكلم speaker's meaning؟

ثم ناقشَ الفصل بناء على السؤالين السابقين مسألة العلاقة بين معنى الجملة والمعنى لدى المتكلم. هل نفسر معنى الجملة في حدود المعنى لدى المتكلم أم العكس؟ رأى فريجه أن تفسير معنى الجملة، المتمثل في امتلاك شروط الصدق، يأتي في المقام الأول، ثم يأتي تفسير المعنى لدى المتكلم بعد ذلك. ولكن الرأي عند جرايس أن طريقة فريجه تقلب الأمور رأسا على عقب، وأن الصواب هو أن تفسير معنى الجملة يأتي في حدود المعنى لدى المتكلم (ص، ١٤٧). هذا التباين في الرأي بين فريجه وجرايس قاد، كما لاحظ ستراوسون في مقالته «المعنى والصدق»، إلى استقطاب كبير بين فريقين من الفلاسفة: فريق ناصر فكرة فريجه (وسموا أصحاب علم الدلالة الصوري)، وفريق أيّد فكرة جرايس (وسموا أصحاب نظرية قصد الاتصال) (ص، ١٤٧).

وفي المبحث الرابع، يناقش الفصل المعنى لدى المتكلم عبر تمييز نوعين من المعنى هما المعنى الطبيعي والمعنى غير الطبيعي (ص، ١٥٥-٥٧). ثم ينتقل الفصل إلى حديث موجز عن نظرية قصد الاتصال وبنية الجملة في المبحث ٥ (ص، ١٦٥)، قبل أن يناقش في المبحث الأخير المعنى اللغوي linguistic meaning بعد أن مهد له بحديث مستفيض عن المعنى عند المتكلم. وقد أراد جرايس بذلك أن يؤسس مفهوم المعنى اللغوي على مفهوم المعنى لدى المتكلم. وهذه الأسبقية للمعنى لدى المتكلم تتفق مع نظرة جرايس لمفهوم المعنى بوصفه أوسع من المعنى اللغوي، ذلك أن المعنى يقع في اللغة وخارجها على حد سواء. ولكن هذه النظرة الواسعة للمعنى لم تمنع جرايس وأنصاره من أن يحددوا لأنفسهم هدفا نهائيًا هو الملاءمة بين تحليلهم للمعنى والمعنى اللغوي (ص،١٦٧).

ومن أبرز القضايا التي ناقشها الفصل في هذا المبحث قضية أن المعنى اللغوي خالد linguistic meaning is timeless. والمعنى الخالد timeless meaning هو الذي تملكه منطوقاتنا عندما لا ترتبط بمناسبة معينة للنطق. وبعبارة أخرى، هو المعنى الذي لا يعتمد على أي مناسبة محددة للاستعمال. ووفق هذا الفهم يكون المعنى اللغوي مثالا للمعنى الخالد، ويكون أيضا مقابلًا للمعنى

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

لـدى المتكلم الذي يرتبط بموقف النطق أو الكلام. بمعنى آخر، المعنى اللغوي هـو الاصطلاح بالإضافة إلى القصـد، أو قل هو خليط من الاصطلاح والقصد (ص، ١٧١).

وبعد أن خُصِّصَ الفصل الرابع والخامس للحديث عن علم الدلالة وتحت مظلته نوقش مشكل فلسفة اللغة الأول، أعني مشكل المعنى وما يتصل به من قصد الاتصال في المعنى (القصدية)، جاء الفصل السادس ليلقي الضوء على قضايا المعنى في علم الاستعمال وقواعد المحادثة. ويعني المؤلف بعلم الاستعمال ما استقر في اللسانيات العربية على تسميته بعلم التداولية Pragmatics. وكما كان من المتوقع، جُعل أول مباحث الفصل التمييز بين علمي الدلالة Semanticsوالاستعمال Pragmatics. ويتولد التمييز بينهما عبر التمييز بين المعنى الحرفي للجملة والمعنى الإضافي. ووفقًا للمؤلف، تظل نظرية جرايس في الاقتضاء implicature هي الإسهام الأصيل في كيفية التوصـل إلـى المعاني الأخرى التي تضاف إلى المعاني الحرفية للجمل، وإن كان أصل هذا التمييز يعود وضعه لـ(تشارلز موريس) أول من ابتكر مصطلح Pragmatics وقصره على معالجة علاقة العلامات بمفسريها. في المقابل، قصر علم الدلالة على معالجة علاقة العلامات بالموضوعات التي تدل عليها (ص،١٨١-٨٢).

وفي الفصل نقاش ثري عن حدود علم الاستعمال وفروعه (أي، علم التداولية كما أسلفنا)، وهو مبني على مرجعيات علمية أصيلة في نشأة العلم ودراسته تكاد تنعدم في المرجعيات اللسانية العربية المعاصرة. وفي هذا الصدد، يقسم الفصل علم الاستعمال، كما يحلو للمؤلف أن يسميه، إلى عـدة فروع. يبحث الفرع الأول كيف يحدد السياق معنى قضويًا واحدًا لجملة في مناسبة معينة لاستعمال هذه الجملـة. ونظريـة الفـعـل الكلامي speech act theory هي الفرع الثاني من علم الاستعمال. والفرع الثالث من علم الاستعمال (ولا ينفصل انفصالًا تاما عن الفرع الثانـي) هـو نظريـة المحادثـة Theory of Conversation أو نظريـة الاقتضـاء Theory of Implicature (ص، ١٨٣).

وينتقل الفصل لإلقاء الضوء مرة أخرى على إسهامات جرايس الرائدة في

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

دراسة المعنى. ويتحدث الفصل عن إجماع بين الفلاسفة على أن جرايس هو أول من قدم دراسة نسقية منهجية تعالج الاختلافات بين المعنى لدى المتكلم (أي معنى القول)، ومعنى الجملة، وما يقتضيه كل منهما. وفي مقابل مصطلح اللزوم implication في المنطق، ابتكر جرايس مصطلح الاقتضاء implicature والفعل implicate، واشتقه من الفعل imply بمعنى يتضمن أو يستلزم، والذي اشتق بدوره من الفعل اللاتيني plicare بالمعنى نفسه. والاقتضاء في عبارة موجزة «يعني عمل المعنى أو لزوم شيء عن طريق قول شيء آخر، أو إنه شيء يعنيه المتكلم ويوحي به ويقترحه ولا يكون جزءًا مما تعنيه الجملة بصورة حرفية» (ص ١٨٣-٨٤). وقد ميز جرايس بين نوعين من الاقتضاء. أوّلهما: الاقتضاء الاتفاقي conventional implicature وينشأ عن طريق المعنى الاتفاقي للكلمات المنطوقة مثل كلمة «لكن» أو التعبير و«من ثمّ»، ولا يتطلب فهمه استدلالًا عقليًا، وإنما يفهم مباشرة. وثانيهما: الاقتضاء التحادثي conversational implicature، وينشأ اعتمادًا على السياق التحادثي، ويستعمل فيه المتكلم الاستدلال العقلي القائم على قواعد المحادثة. وقبل أن يختم الفصل حديثه عن نظرية الاقتضاء، تطرق إلى السياق الفلسفي الذي ظهرت فيه وانعكاس ذلك على النظرية من خلال إكسابها زخمًا من الأهمية في نظرية المعنى (ينظر ص، ١٨٦-٩٢). وكذلك تطرق إلى الحديث عن أهمية ما أسماه جرايس بالمبدأ التعاوني Cooperative Principle ودوره في نظريته عن الاقتضاء التي تعتمد على النظر إلى استعمال اللغة بوصفه ضربًا من الفاعلية العقلية rational activity والتعاونية cooperative؛ بغية تحقيق هدف الاتصال بين المتكلمين. وتتلخص فكرة «المبدأ التعاوني» في أن المتكلم ينبغي أن يجعل إسهامه التحادثي وفق الغرض أو الاتجاه المقبول لتبادل الكلام الذي يشارك فيه. وقد وسع جرايس هذا المبدأ العام للسلوك التحادثي في مجموعة من القواعد أطلق عليها اسم القواعد التحادثية conversational maxims، وصنف هذه القواعد تحت أربع مقولات categories هي: الكم quantity، والكيف quality، والإضافة (العلاقة) relation، والجهة:manner . ويتحقق الاقتضاء التحادثي Conversational implicature إما بالامتثال لقواعد المحادثة ومراعاتها، وإما بالخروج على قواعد المحادثة وكسرها شريطة أن يكون هذا الخروج مسوّغًا (ينظر

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ص ١٩٤-٩٥ لمعرفة بعض الأمثلة التي توضح هاتين الطريقتين. ولمزيد تفصيل عن هذه القواعد ينظر الخليفة ٢٠١٣)).

وينهي الفصل نقاشه الممتع عن نظرية جرايس في الاقتضاء بالحديث عن الانتقادات التي وجِّهت لها على الرغم من أنها تحظى برواج بين علماء الدلالة. ومهما يكن من أمر، يرى المؤلف أن إحدى مزايا نظرية الاقتضاء أنها تُرحِّل جوانب حدسية كثيرة من المعنى إلى علم الاستعمال بوصفها مقتضيات، بدلًا من أن تعامل بوصفها معطيات حقيقية لعلم الدلالة، وهي بذلك (أي، نظرية الاقتضاء) تساعد بشكل مهم في التمييز بين المضامين الدلالية والمضامين الاستعمالية البحتة (ينظر ص، ١٩٧-٩٨).

ويختم فصولَ الكتاب الفصلُ السابعُ الذي خُصص لدراسة اللغة والصدق والواقع، وهي موضوعات أساسية وجدلية تأتي في أولية مباحث فلسفة اللغة. ويبدأ الفصل بطرح الأسئلة التي يكثر طرحها عادة عن الصدق، ومن أبرزها (ص، ٢٠٧-٠٨): ما الصدق؟ ومن الصادق؟ وكيف ننجح في معرفة الصدق ونميز الصادق من الكاذب؟

يدور السؤال الأول حول طبيعة الصدق the nature of truth، ويدور السؤال الثاني حول «الأشياء» التي تكون صادقة والتي يُقبل منها ما يعرف باسم «حوامل الصدق « truth – bearers. أما السؤال الثالث فيرتبط «بطبيعة التحقق» the nature of verification من صدق الأشياء الصادقة. أما الأشياء التي نصفها بأنها صادقة، فيقسمها الفصل فئتين. (أ) أشياء تقال ويعبر عنها باللغة مثل العبارات، والقضايا، والاعتقادات، والملاحظات...إلخ و(ب) أشياء أخرى يجوز وصفها بأنها «صادقة» ولكنها لا تدخل في إطار المقول، ولا يمكن قولها ولا صياغتها في اللغة مثل الأصدقاء، والشجاعة، واللآلئ. وعندما يقول الصديق قولًا ما، فإننا نصفه بأنه صادق فيما قال، ولكن الصديق لا يقال ولا نصوغه في اللغة.

وما يهم فلسفة اللغة في مفهوم الصدق هو ما ينتمي إلى الفئة الأولى؛ ولذا نجد الفصل يحاول تحديد حوامل الصدق التي اختلفت آراء الفلاسفة حولها، وتعدد إجابات النظريات عنها (ينظر ص، ٢١١).

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

أما ما يخص اللغة، فقد نوقشت استعمالات المتكلمين لها، ووضِّح كثرتها وتنوعها (التساؤل، والطلب، والوعد، والوعيد، والسب واللعن، والنداء والتوسل، والوصف والخبر، والتمني والتعجب، ونحو ذلك). وطرح الفصل سؤالًا عن مدى وصف هذه الاستعمالات بأنها منطوقات صادقة أو كاذبة (أي، علاقتها بالواقع). وفي هذا الصدد، حُصرت الجمل التي يحكم عليها بصدق أو بكذب بالجمل الإخبارية declarative sentences. أما الاستعمال اللغوي الذي يقال لقائله إنه صادق أو كاذب فهو الخبر. ومن هنا كانت عناية الفلاسفة بالجمل الإخبارية التي تقرر حالة من حالات الواقع (ص، ٢١٢). وبعد تحديد المعنى اللغوي لكلمة (الصدق) في اللغتين العربية والإنجليزية الذي لا يعدو أن يكون إلا مطابقة القول أو الحكم للواقع، نجد الفصل يقدم عرضًا موجزًا لنظريات الصدق، ويفصل الحديث عن أبرز اثنتين منها، وهما (أ) نظرية التناظر و(ب) نظرية التناسق. وحول كل نظرية ذكرت الاعتراضات والرد عليها بعد حديث مفصل عن أفكارهما ونماذجهما (ينظر ص، ٢١٦-٣٦).

نقد الكتاب

حتى نعرف قيمة العمل المسدى في هذا الكتاب، وضخامة الجهد المبذول، علينا أن نلقي نظرة على ضخامة المرجعيات العلمية التي استقى منها مادته. وسنجد أن جلها كان من المرجعيات الأصيلة التي يعتد بها في تاريخ علم فلسفة اللغة. فالكتاب في نقاشه للقضايا والأفكار الأساسية في تاريخ العلم عاد إلى مظانها الأولى إنْ في كتابات روادها، وإنْ في الكتابات المعتمدة في تتبع ورصد هذه القضايا في مظانها الأجنبية، ثم نقلها لنا نقل العالم المدرك لأبعادها بلغة عربية سليمة وواضحة بعيدة عن الحشو والاستطراد والتعقيد. وتلك ميزة تغيب عن أكثر ما يؤلف اليوم باللغة العربية عن الدراسات اللغوية الغربية ونظرياتها المتعددة والمتجددة. فالكثير من تلك المؤلفات يعتمد على مراجع وسيطة عربية أو مترجمة، ولا يتكلف العناء في البحث في المظان الأصلية لتلك النظريات؛ فيأتي ما كتب عنها مشوّهًا ورديئًا وصعب الفهم، فضلًا عن المغالطات والأخطاء التي، ربما، منشؤها تلك المراجع الوسيطة.

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

ومما يسجل للكتاب ولمؤلفه أن غموض المصطلح قد أزيح منذ البدء، ونزع عنه ما يلتبس معه ويتداخل من مصطلحات أخرى. ومما يسجل أيضًا، أن جل القضايا والأفكار المفصلية في تاريخ العلم قد نوقشت، وإن بدرجات مختلفة في الإسهاب والعمق. وكان نقاشها مستندًا على المرجعية العلمية الأصيلة، والخلفية العميقة لتلك القضايا والأفكار. وهذا ما يجب وما يُنتظر عندما يكون المؤلف مختصًا بالحقل وملمًا بالموضوع الذي يكتب فيه.

وإن كان من نقد يوجه للكتاب، فهو في اختيار طريقة العرض ونقاش بعض الأفكار. فمثلًا، كان الأجدى أن يكون الفصل الثاني عن إسهامات فريجه طالما أنه الأب الروحي لهذا العلم، وطالما أن جلّ ما كُتب في تاريخ هذا العلم في اللغات الأخرى وخاصة الإنجليزية يقر بذلك. والبدء بفريجه مهم جدًا في جلاء كثير من الأمور الملبسة في تاريخ العلم خاصة أنه المنظّر الأول لموضوعين مهمّين ومفصليّين وعليهما مدار النقاش في حقل فلسفة اللغة حتى هذا اليوم، أعني موضوعي الإحالة والمعنى reference and sense. صحيح أن الكتاب لم يغفل الحديث عن فريجه في ثنايا الكتاب وركز على بعض آرائه في الفصل الخامس وناقشها وقارنها بغيرها، ولكن كتابًا في تاريخ فلسفة اللغة يصعب أن ترى فصوله الأولى تخلو من حديث مفصل عن إسهامات فريجه وهو من هو في تاريخ العلم. ولمزيد معرفة عن دور فريجه الرائد في فلسفة اللغة، ينظر الفصل الثري الذي كتبه Heck و May (٢٠٠٨) بعنوان: إسهام فريجه في فلسفة اللغة، ونشر ضمن كتاب دليل أكسفورد الإرشادي عن فلسفة اللغة (ينظر قائمة المراجع).

ومما يلحظ على الفصل الثالث في الكتاب، فصلِ الحديث عن النظرية العقلية في اكتساب اللغة ومعرفتها وحصرها بفكر تشومسكي، أنه أطال الحديث عن الجانب النظري للنظرية التوليدية، وأوجز الحديث عن جانبها الفلسفي المهم لموضوع الكتاب. وقد سبق في عرض محتوى الفصل الإشارة إلى نقص في تتبع تاريخ النظرية وإغفال لتطور فلسفتها في كيفية إبداع العقل للغة عبر نماذجها المختلفة ولا سيما في نموذجها الأحدث المعروف بالبرنامج الأدنوي. وعودة على جانب النظرية الفلسفي، نجد أن الفصل أهمل أسئلة النظرية الفلسفية المباشرة التي تشكّل الخلفية

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

الفلسفية لها. ويمكن حصرها في سؤالين أساسيين هما (ينظر الطيب ١٩٩٧):

(أ) كيف يتأتى للكائنات البشرية أن تصل إلى معارف متعددة، على الرغم من اتصالها المحدد بالعالم؟

(ب) ماذا يمكن لدراسة اللغة أن تساهم به في فهمنا للطبيعة البشرية؟

اضطر بحث إجابة السؤال الأول تشومسكي أن يحفر في فلسفة أرسطو ومشكل أفلاطون، والعقلانية الديكارتية، وتجريبية هيوم، ونسبية كانت، وأن يقوّض، انسجامًا مع الموقف العقلاني الذي تبناه كإطار للتحليل، دعائم النظرية التجريبية. أما السؤال الثاني، فكانت عبر ربط اللغة بالفكر؛ إذ هي مرآته وفق التعبير الكلاسيكي. ومن هنا يصبح السبيل إلى مقاربة الطبيعة البشرية في التصور التوليدي هو دراسة طبيعة القدرة المعرفية، والبنيات التي تتحقق عبرها ودورها في تفسير كنه المعرفة الإنسانية. واللغة، بلا أدنى شك، هي الوسيلة الأنجع في الوصول إلى ذلك وتحقيقه.

ومما يلحظ على البناء العام للفصول غياب التناسب في عدد صفحاتها، وفقدان الوَحدة العضوية داخلها وبينها، فلا نجد تقديمًا وعرضًا للفصل بالشكل الأكاديمي المتعارف عليه في طريقة كتابة الفصول وتقسيمها. وربما يعود السبب في ذلك إلى أن جلّ هذه الفصول في أصلها كانت أبحاثًا نشرت في مجلات علمية ثم جمعت لتشكل نواة هذا الكتاب.

وفي مواضع قليلة من الكتاب تترك بعض الأفكار بلا شرح، ومن أبرز الأمثلة على ذلك فكرة (الاستبدال التمثيلي) التي جاء بها كواين للرد على المظهر الإبداعي للغة عند تشومسكي الذي استعمله للرد على (مفهوم الإشراط الإجرائي) أحد المفاهيم الأساسية للنظرية التجريبية (ينظر الفصل الثاني، ص ٤١).

ومما يجدر التنبيه عليه أن الكتاب يستخدم ترجمات للمصطلحات اللسانية خارج المتعارف والشائع في الدرس اللساني العربي المعاصر، وقد نُبِّه على بعضها في عرض المراجعة لفصول الكتاب. كمثل الإصرار على استخدام «علم اللغة» بدل «علم اللسانيات»، و«علم الاستعمال» عوض «علم التداولية»، و«نظرية الأفكار» بدل «النظرية الفكرية» أو «التصورية»...إلخ. وربما يعود ذلك إلى قناعات بجدوى

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

مصطلح على حساب مصطلح آخر لا إلى عدم معرفة بشيوع هذه المصطلحات. ومما ينبه عليه، أيضًا، وصف فتجنشتين بالمبكر أو المتأخر؛ وذلك في تمييز تطور أفكاره وتحولاته الفكرية طيلة عمره العلمي (لرصد هذه التحولات، ينظر خليفي ٢٠١٠). وهذا التمييز لم ينبه عليه في متن الكتاب ولا في هوامشه؛ مما قد يوقع القارئ في سوء فهم فيظن أنهما مختلفان، وواقع الأمر ليس كذلك. وقد أزال المؤلف هذا اللبس في كتابه اللغة والعقل والعلم في الفلسفة المعاصرة (٢٠١٨) عندما وضّح في (ص، ٣٩) سبب استخدام الوصف بالمبكر أو المتأخر أو حتى المتوسط عند عند ورود اسم اسم فتجنشتين؛ تمييزًا لتباين أفكاره الفلسفية في سنوات نشاطه العلمي (١٩١٤-١٩٥١).

ومهما يكن، فهذه ملحوظات عامة لا تسلب الكتاب جودته، وإحكام فكرته، ويبقى الكتاب من أفضل الكتب التي لا غنى لمن يريد فهم تشعبات موضوعات فلسفة اللغة ودراسة تاريخ أفكار هذا العلم. ومما يقوي القيمة العلمية لهذا الكتاب أنه كتبه مختص خبير بالفلسفة المعاصرة يرى أن هدف الفلسفة هو تحليل بنية الفكر، وأداتها ومنهجها هو التحليل اللغوي والمنطقي للمفاهيم، فلا تحليل فلسفيًا للفكر بمنأى عن تحليل فلسفي آخر للغة. كما يقوي القيمة العلمية للكتاب، إذا ما استذكرنا العرض السابق للفصول، غزارة مادته العلمية وأصالة الطرح والعودة بالأفكار والنظريات إلى مظانها الأصلية والقراءة عنها بلغاتها التي كتبت بها. وتلك ميزة تكاد تندر، إن لم تنعدم، في أكثر ما يكتب حول هذا الموضوع. وأخيرًا، سيعرف من سيقرأ هذا الكتاب، بما سيجد فيه من نقاش لقضايا، ذات حمولات ميتافيزيقية، وتتداخل فيها اللغة بالعقل والفكر والعالم والوجود- إلى أيّ حدٍ كانت على حقٍ مقولةُ ليبور Lepore وسميث Smith (٢٠٠٨: ١) حين وصفا موضوع فلسفة اللغة في تقديمهما لكتاب دليل أكسفورد الإرشادي الضخم عن «فلسفة اللغة» بأنه علم عميق/ واسع لا قرار له:

Philosophy of language is usually presented as a deep-end subject

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

مراجع المراجعة:

- إسماعيل، صلاح. (٢٠٠٧). نظرية المعنى في فلسفة بول جرايس. القاهرة: دار قباء الحديثة.
- إسماعيل، صلاح. (٢٠١٨). اللغة والعقل والعلم في الفلسفة المعاصرة. القاهرة: دار رؤية للنشر والتوزيع.
- أورو، سيلفان. (٢٠١٠). فلسفة اللغة. بيروت: دار الكتاب الجديد.
- بارتشت، بريجيته. (٢٠٠٤). مناهج علم اللغة من هرمان باول حتى ناعوم تشومسكي. ترجمة: سعيد حسن بحيري. القاهرة: مؤسسة المختار.
- جيز، ستيفن. (٢٠٢٠). ما الجديد في فلسفة اللغة؟ ترجمة: زياد الحازمي. متاح على موقع أثارة عبر الرابط التالي:

/https://atharah.com/whats-new-in-philosophy-of-language

تاريخ ١/ ٦/ ٢٠٢١.

- الحريص، ناصر. (٢٠١٤). الخاصية النظامية للغة ودورها في فهم كيف يبدع العقلُ اللغةَ. مجلة العلوم العربية والإنسانية، جامعة القصيم، مج ٧، ع ٣، ص ص: ٨٨٣-٩٤٠.
- الحريص، ناصر. (٢٠١٨). المظهر الإبداعي للغة: مقاربة أدنوية-إدراكية. مجلة اللسانيات العربية. مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ع ٦، ص ص ٢٦-٥٩.
- الخليفة، هشام. (٢٠١٣). نظرية التلويح الحواري. بيروت/ القاهرة: مكتبة لبنان ناشرون والشركة المصرية العالمية للنشر.
- خليفي، بشير، (٢٠١٠). الفلسفة وقضايا اللغة: قراءة في التصور التحليلي. الجزائر: منشورات الاختلاف، بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.
- ريكاناتي، فرانسو. (٢٠١٦). فلسفة اللغة والذهن. ترجمة: الحسين الزاوي. الجزائر: ابن النديم للنشر والتوزيع.
- زيدان، محمود فهمي. (١٩٨٥). في فلسفة اللغة. بيروت: دار النهضة العربية.

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً

- الطيب، بنكيران محمد. (١٩٩٧). «الخلفية الفلسفية في النظرية التوليدية»، مجلة عالم الفكر، المجلد ٢٥، العدد ٣، يناير/ مارس، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- عمر، أحمد مختار. (١٩٩٨). علم الدلالة. القاهرة: عالم الكتب.
- غلفان، مصطفى. (٢٠١٠). اللسانيات التوليدية: من النموذج المعيار إلى البرنامج الأدنوي: مفاهيم وأمثلة. بمشاركة محمد الملاخ وحافظ علوي. إربد (الأردن): عالم الكتب الحديث.
- Chomsky, N. (1964). «Current issues in linguistic theory" .in J.A. Fodor & J.J. Katz (eds., The structure of language, Readings in the philosophy of language Englewood Cliffs, Prentice Hall, 51-118.
- Chomsky, N. (1975). "Reflections on language". New York: Parthenon Press.
- Lepore. E & Smith. B. (2008). «Preface». in E. Lepore and B. Smith, eds., The Oxford Handbook of Philosophy of Language (Oxford: Oxford University Press, pp., pp. 1–4.
- Heck, R.G., & May, R. (2008). «Frege's Contribution to Philosophy of Language». in E. Lepore and B. Smith, eds., The Oxford Handbook of Philosophy of Language (Oxford: Oxford University Press, pp. 3–39.

هذه الطبعة إهداء من المركز ولا يسمح بنشرها ورقياً أو تداولها تجارياً